الأيام — الثلاثاء ٢٠١٨/٤/١٧ الموافق ٣٠ رجب ١٤٣٩ هـ العدد ٨٠٤٤ السنة الثالثة والعشرون

AL-AYYAM Tuesday 17/4/2018 Issue No.8044 Volume 23

«أوان القطاف» لمحمود الورداني .. رأس الراوي يستعيد حكايات رؤوس خلت !

كتبت بديعة زيدان:

"لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أفقد فيها رأسي، فلقد سبق لي أن فقدته مرات عديدة، كما سبقني آخرون فقدوا رؤوسهم مثلي" ..

لعل هذه العبارة تختصر بشكل أو بآخر حكايات رواية "أوان القطاف" للروائي المصري محمود الورداني، الصادرة حديثاً عن دار فضاءات للنشر والتوزيع.

وعنوان الرواية الذي يبدو مقتبساً من عبارة الحجاج الشهيرة "والله إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها"، يمزج في حوار بين مجموعة من الرؤوس حكايات "القطف" عبر التاريخ، والتي استعادها أبناء القرن الحادي والعشرين عبر فيديوهات عدة لإعدامات بشعة نفذها سيافو تنظيم "داعش"، وكأن بالورداني يشير بأسلوب روائي شيق، إلى أن ما يحدث اليوم ليس وليد اللحظة، بل سليل تاريخ طويل من جز الرقاب.

"لم يكن قد مضى أكثر من خمسين عاماً على موت النبي، عندما احتز رأس ابن فاطمة ابنته، ومثل بعترته على هذا النحو المهين، ولعله من أوائل الرؤوس التي سارت بشجاعة نحو قدرها المحتوم. لم يعبأ الحسين بنصيحة عبد الله بن مطيع، وهو مزمع الانصراف من مكة يريد المدينة فراراً من ملاحقة الوليد بن عقبة بن أبي سفيان لأخذ البيعة ليزيد (الخليفة الجديد)، في أعقاب موت أبيه معاوية، ذلك الذي سبق له أن قتل أبا الحسين علي بن أبي طالب. كانت نصيحة عبد الله بن مطيع إذن، بعد أن علم بنية الحسين: ألا يغادرها إلى الكوفة، فهي بلدة مشؤومة شهدت قتل أبيه".

وجاء في "أوان القطاف" التي يعود فيها الورداني للكتابة الروائية بعد عشرين عاماً على روايته السابقة "الروض العاطر"، حول رأس الحسين "والواقع أن الرأس الكريم قد فرّ هارباً بعد ذلك، أثناء ما كانوا يسوقونه مع موكب الأسرى في الطريق إلى دمشق، مقر البلاط الأموي، فحط في حضن "أم الغلام" في إحدى حواري القاهرة، وهي الواقعة التي يشكك فيها البعض بدعوى أن القاهرة لم تكن بنيت بعد".

وتشير المراجع إلى أن يزيد بن معاوية حاول بطريقة أو بأخرى إضفاء الشرعية على تنصيبه خليفة فقام بإرسال رسالة إلى والي المدينة يطلب فيها أخذ البيعة من الحسين الذي كان من المعارضين لخلافته، فرفض أن يبايعه، وغادر المدينة سرّاً إلى مكة واعتصم بها، ومنها إلى الكوفة.

بعد أن رأى الحسين تخاذل أهل الكوفة وتخليهم عنه، وبعد رفضه الاستسلام، بدأ رماة الجيش الأموي يمطرونه وأصحابه الذين لا يزيدون على ثلاثة وسبعين رجلا بوابل من السهام .. وحسب المراجع فإن شمر بن ذي جوشن قام بفصل رأس الحسين عن جسده باثنتي عشرة ضربة بالسيف من القفى، وكان ذلك في يوم الجمعة من عاشوراء في المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة وله من العمر ٥٦ عاماً. ولم ينج من القتل إلا علي بن الحسين السجاد وذلك بسبب اشتداد مرضه وعدم قدرته على القتال، فحفظ نسل أبيه من بعده، واختلف الرواة في مستقر الرأس ما بين كربلاء، والشام، وعسقلان، والبقيع، دون أي ذكر للقاهرة في المراجع الموثوقة.

وحكايات الرؤوس تبدأ من رأس الراوي نفسه، حيث انفصل عن جسد صاحبه الذي اتخذ من سطح القطار مستقراً له، بعد أن علق بجدار حديدي، فيتحدث الرأس عن يومياته، محيلاً القارئ إلى رؤوس خلت، من بينها رأس عبيد الله بين زياد التي اقتطفت في معارك "ثأر الرؤوس" ما بين نسل علي ونسل معاوية، وأنصار كل منهما.

شهدي الشيوعي

وعلاوة على حكاية رأس الحسين المحورية في الرواية، هناك حكايات لرؤوس أخرى تدفع القارئ للنبش في التاريخ بحثاً عن حكايات أصحابها، من بينها رأس شهدي عطية، الذي قضى في سجون جمال عبد الناصر، انتصاراً لكرامته بعد أن رفض الإذعان لسجانيه، على الرغم من التفنن في تعذيبه ورفاقه من الشيوعيين، الذين ظلوا يؤمنون بعبد الناصر كرجل وطني رغم استبداده.

قتل شهدي عطية الشافعي تحت التعذيب في سجن أبو زعبل في ١٥ حزيران ١٩٦٠ .. ووفق ما ذكر أحد شهود الحادث، د. أحمد القصير: بعد وصول شهدي إلى بوابة المعتقل تعرض لتعذيب وحشي واجهه بكبرياء، حين طلب منه أن يقول: "أنا مرة"، وهنا رد شهدي قائلا: "أنا شهدي عطية وأنت عارف".. في ذلك الموقع لفظ شهدي أنفاسه الأخيرة.

شاكر في العراق

إثر عودة بعض الجنود العراقيين من الكويت عقب احتلالها، وعند الحدود لفت أحدهم جثة رجل سمين مقطوعة الرأس بجانبها حقيبة .. استوقفته الجثة، لكنه أخذ الحقيبة وغادر المكان، ليكتشف أن بداخلها مظروفاً عبارة عن سيناريو لفيلم عن أحمد عرابي، كتب على صدره "يسلم ليد إقبال" .. يقع المظروف في يد شقيق الجندي المهتم بالسينما، وهو الذي هاجر بعد ذلك إلى دولة اسكندنافية، حيث تنطلق رحلة البحث عن إقبال بعد تسع سنوات حتى استقر بعد الفرار من حكم صدام حسين، ويتبدى له أن إقبال المصرية هي شقيقة الرجل السمين، إلا أن المظروف يصلها ولا يصل إليها هي التي تسبقه بالانتحار.

بلا أسماء

ومن بين حكايات الرؤوس، هناك حكاية العائد من الخليج بعد سنوات طويلة، جمع فيها مائة ألف دولار هي الهدف الذي رسمه قبل مغادرته مصر، لينتهي به المطاف مقطوع الرأس على يد زوجته وعشيقها سائق "التاكسي" الذي سبق أن اشتراه من باب "الاستثمار".

وهناك أيضاً حكاية رأس الفتى ذي الخمسة عشر ربيعاً، والذي أعد العدة وأصحابه لينضموا في رحلة إلى بورسعيد، وفي ميدان التحرير هبط من الحافلة رفقة اثنين من أصدقائه، وغابا بين جموع الثائرين يهتفون معهم أحياناً، ويهربون رعباً من القمع أغلب الوقت، حتى أصيب الصبي الذي لم يذكر اسمه بطلق ناري، وقضى.

صرخة بتقنية مبتكرة

الورداني، وفي "أوان القطاف"، يقدم عبر حكايات واقعية وأخرى مفترضة صرخة ضد الظلم بكافة أنواعه، وضد العنصرية أيضاً، فالحسين قتل لأسباب سياسية ودينية، وشهدي كما الرجل السمين ضحايا استبداد الأنظمة العربية، وكذلك الأمر الفتى ذو الخمسة عشر ربيعاً، والذي كان ضحية نظام وثورة لم تكتمل في آن، أما العائد من الخليج فكان ضحية تدهور واقع المنظومة المجتمعية، بلغة غير متكلفة وشيقة في آن، حيث التنقل المتقن ما بين حكايات الرؤوس مع العودة باستمرار إلى الرأس الأول.

وكان رأس الراوي، هو الراوي هذه المرة، في تقنية مبتكرة ولافتة تحاكي بغرابتها غرابة واقع قد يتوقف عليها في انعكاسات أحداث على فغر أفواه المتابعين لشاشات التلفزة عن القارئين للتاريخ بجبروت قاطعي الرؤوس والطغاة، وعن الرأس المعلق الذي يرى أن ما حدث معه في ثوان أفضل من "الصلم، والجدع، وتقطيع الأوصال، وجب المذاكير، وسلخ الجلد كما حدث لمحمد بن عبادة الذي أسر أيام الخليفة المعتصم بالله، أو ما حدث لأحمد بن عبد الملك عطاش صاحب قلعة أصفهان الإسماعيلية، حيث سلخ جلده حتى مات وحشي تبناً، أو ما حدث للفقيه الدمشقي أبي بكر النابلسي الذي لم يكتف الخليفة المعتز بسلخه وحشو جسمه تبناً بل أضاف إلى ذلك صلبه. فقدي لرأسي على هذا النحو أفضل أيضاً مما حدث لابن أبي نعواس، أحد قادة القرامطة، حين قلعت أضراسه أولاً، ثم خلعت إحدى يديه بشدها إلى بكرة متحركة، وفي الصباح قطعت يده الباقية ورجلاه، ورأسه، قبل صلبه إلى الجانب الشرقي من بغداد".

إطلاق كتاب «الأصولية الإسلاموية الجديدة» لعبد الغني سلامة في متحف محمود درويش

رام الله: أطلق الكاتب والباحث عبد الغني سلامة أول من امس، كتابه "الأصولية الإسلاموية الجديدة" وذلك في متحف محمود درويش في مدينة رام الله، وقدمه الباحث عبد المجيد سويلم.

وقال سلامة عن الكتاب، "الإسلام السياسي مصطلح برز في ثمانينات القرن الماضي، وكان الغرض منه أولا: توصيف الجماعات والقوى والأحزاب التي تعمل تحت غطاء الدين، وثانيا: الفصل بين الدين وبين الأحزاب التي تعمل تحت غطائه".

ونوّه سلامة إلى أن الأخطر من ظهور التطرف هو عدم فهم الأسباب التي أدت إليه من خلفيات اقتصادية واجتماعية، وقال، "لقد لعبت السعودية ومصر دوراً مركزياً في ظهور الحركات الإسلامية إضافة إلى إيران بعد سقوط الشاه"، وأشار إلى أن الإسلام السياسي ليس على شاكلة واحدة، فهناك قوى معتدلة تبحث عن السلطة من خلال الانتخابات، وقوى متطرفة تستخدم العنف، على أن أغلب قوى الإسلام السياسي تطرح نظريات شمولية تسعى إلى أسلمة كل مظاهر المجتمع، وقال، إنه حاول في هذا الكتاب إيجاد علاقة بين حركات الإسلام السياسي، والطائفية، والتكفير، والعنف الديني، واستنتج أن معظم الحركات تورطت في المسلكيات الثلاث.

من جهته، قال سويلم، "الكتاب تصدٍّ واضح لأولئك الراغبين في الإقامة في الماضي، وقد خاض الكتاب في منطقة خطرة يتوجب على المثقفين خوضها دائما، فالعنوان مغرٍ لأنه يتعلق بموضوع ملحّ وآن، وأهمية الكتاب تنطلق من جرأته الأدبية والأخلاقية في تناول الموضوع".

وكتاب عبد الغني عنوان "الأصولية الإسلاموية الجديدة - تأملات في فكر وممارسات قوى الإسلام السياسي"، يقع في ٣٠٨ صفحات من القطع المتوسط وصدر عن دار الرعاة في رام الله.

من حفل التوقيع في متحف درويش.

«مكان مؤقت» لعدنان ضميري .. «يا أهل البلد رشيقة جابت ولد» !

كتب يوسف الشايب:

"لم تكن زائغة مثل أي امرأة تضع مولودها، كان الرمان بلل ساقيها، وكان ثوبها مدبغاً بدم الولادة. لقد وقفت وهي تتكئ على ريحها الصلب دون أن تتمايل، ووجهت فاها إلى السماء ... للمخيم والمدينة قائلة: يا أهل البلد رشيقة جابت ولد" .. هذه واحدة من القصص المحورية لكتاب "مكان مؤقت"، سيرة عدنان ضميري، الصادر حديثاً عن "طباق للنشر والتوزيع" في رام الله.

وسرد ضميري حكاية "يا أهل البلد رشيقة جابت ولد"، بقوله: أمي فلاحة من طولكرم وأصلها من كفر زيباد تزوجت العام ١٩٤٣ في الضمايرة القريبة إلى قيسارية، ولكنها كانت في لواء حيفا، وتقع على شاطئ البحر أو على خد الموج .. والداي رحمهما الله أنجبا اثنتين من البنات في عامين متتاليين ١٩٤٤ و١٩٤٥، وفي نيسان من العام ١٩٤٨ هجّروا من "الضمايرة"، فعادت أمي إلى طولكرم، وبالنسبة لها لم تعتبرها تهجيراً على عكس والدي، لكن المفارقة أن العصابات الصهيونية حاولت قصف "ماتور" الماء في طولكرم فجاءت القذيفة في "حاكورة القص" فاستشهد شقيقتاي الاثنتين جراء هذا القصف، كانت إحداهما في سن الثالثة، والأخرى تبلغ من العمر عاماً ونصف العام.

وتابع ضميري الحكاية: بعد سنوات أنجبت أمي ابنتين أخريين، فالمجتمع والمحيطون، وبكل قسوة، أطلقوا عليها لقب "رشيقة أم البنات" .. عندما جاءها المخاض "على لوح الزينكو" في المخيم، في الثالث من آب للعام ١٩٥٤، أبلغتها المرحومة أم محمد القابلة (الداية) بأن المولود ذكر .. تقول أمي إنها وقفت، وهي "تشر دماً"، وقفت على رجلها العرجاء، وصاحت بأعلى الصوت "يا أهل البلد رشيقة جابت ولد"، ومن هنا بدأت الحكاية التي حين قصصتها قبل سنوات للشاعر د. المتوكل طه، شجعني على توثيق هذه الحكاية وغيرها من حكايات سيرية شكلت مجموع هذا الكتاب .. أتذكره كان يقول لي "إنت واحد مجرم .. اكتب هذا الحكي"، وهو ما كان في "مكان مؤقت".

"أتذكر أبناء جيلي ونساء الحارة في المخيم ينادينني عدنان ابن رشيقة، لم أكن أخجل من الاسم، ومن بعض العادات في الأرياف أنهم يغضبون إذا ما عرفت أسماء أمهاتهم أو أخواتهم، حتى أن بعضهم لا يكتب اسم البنت في بطاقة الدعوة للزواج أو الخطوبة، وعندما تصدر بطاقة دعوة الزواج باسم الأم للنساء يكتبون عليها حرم فلان ولا يعلنون اسم الأم".

في حكاياته الذاتية يعود ضميري إلى ما رواه له والده وعمته عن "الضمايرة" المهجرة، وزيارته الأولى لها في العام ١٩٨٣، حين أبهره شجر الكينا، مسترجعاً طرائف الشعر الشعبي الذي حفظه صغيراً من سليم، وشهامة احمد الجبر الذي عرفته المنطقة كشيخ عرب وقائد عشيرة، استشهد في طولكرم بعد أن أطلق عليه مجهول النار قرب المقبرة الغربية في طولكرم، وهو عائد إلى بيته مساء في كانون الثاني ١٩٤٨.

ويعرج على مرحلة "الإعدادية"، حيث "لم تكن الكهرباء وصلت إلى المخيم"، فيدرس مع سميح رجا وأحمد شحادة وغسان البديري، على نور أعمدة الكهرباء في شوارع المدينة، مستعيداً من ذاكرته المتقدة شاي الأمهات، والمقعد رفيق خلف على ألواح الخشب عجلاتها (البيليا)، وحيدر العياط السبعيني يلوح بمنديله بعد برمه في الدبكة الشمالية بين الشباب، وكومة البطيخ في عريشة "أبي فخري".

وكان لشقيق البنات (أخو البنات) مهمات أخرى في المخيم حيث لا حمامات ومراحيض في البيوت .. "كان في كل حارة مرحاض عام للرجال وآخر للنساء قريبان، وأخو البنات هو من يرافق أخته في الليل إلى المرحاض، يحمل إبريق الماء المصنوع من التنك بـ"بعبوزته" الطويلة، وينتظرها بعيداً حتى تنتهي" .. يغني في الطريق إلى بيت الراحة كي يطرد الكلاب الضالة وجن القتيلة التي يعتقد أهل الحارة أنه يظهر في الليل قريباً من دار "عذبة" (أم حسين)، وقرب دار أم حاتم سبيتان صديقة والدته.

لا ينسى ضميري توثيق "سنة الثلجة"، وفريق "السمران"، أي فريق كرة القدم في مخيم طولكرم، و"الحمّام الجماعي"، و"عيادة الوكالة"، و"شجرة الكينا"، وحكايات المدرسة وأزقة المخيم، والبيارة، وبيت الطين، و"مطعم الوكالة"، و"البقجة"، والدنانير العشرة، وماتور الماء، وصولاً إلى حرب العام ١٩٦٧، ورحلة المعتقل.

ومن آثار رحلة الاعتقال، سطر ضميري ما أسماه "عقد القران المأسور"، ليصف: لمحتها من بعيد على شبك الزيارة الذي يخفي تقاسيم الوجوه، ويظهر مثل كرّاس الهندسة في الصفوف الأساسية، تنظر باهتمام إلى أخيها محمود في الجهة الأخرى من الشبك، لم أرَ تفاصيل وجهها في هذا الغباش الذي يسيّج الضوء كنور شمعة خافت لكنه كاف لنرى الطريق إلى القلب، وأغادر سقف الغرفة والخيال المضمخ بالفضيحة الداخلية.

وبعد حين ... "بعد الزيارة التي امتد فيها إصبعها من الشبك لأزنّرها بخاتم الخطوبة بعيداً عن أعين الحرّاس الذين قد يمنعون عملية من هذا النوع (تمس الأمن) بعرفهم، مددت إصبعي لتضع فيها خاتم الرباط المقدس، وبالكاد أدخلت إصبعي من ثقب الشبك الصغير، فلم تنبس شفتاها ولا شفتاي بحرف، بل تحجرت الكلمات قبل وصولها حافة الشفة، لينقذ الموقف دمعة سقطت من عينها التي خطف الأطفال براءة صدقهم منها، سقطت لتعانقها دمعتي من خلف الشبك، الذي شكل (لوج) منصة العروسين بلا زغاريد وبلا غناء"، فكانت الخطوبة على شبك الزيارة في السجن، تلتها موجة من الرسائل.

تحدث ضميري عن مرحلة ما بعد الاعتقال، وعمله كحلاق تتلمذ في السجن على يد الأسير سعدي المحتسب، وكيف "كان الزبون الذي كنت أتوقع منه أن يدفع خمسة شواقل مثلاً، يدفع عشرة شواقل، وكأنه يتضامن مع هذا السجين الذي تحرر من اعتقاله وضاقت عليه السبل فأراد أن يساندوه، ولو ببضعة شواقل إضافية"، حتى بات مع الوقت صالون الحلاقة مكاناً "يجتمع فيه أبناء الحي والأصدقاء".

ولم يغفل الضميري في "سيرة الجنرال .. المخيم والاعتقال" الحديث عن تجربته في مجالس الطلبة، والمناظرات ما بين الكتلة الوطنية أوائل الثمانينيات وهي الذراع الطلابي لفصائل منظمة التحرير في مواجهة الكتلة الإسلامية الذراع الطلابية لحركة الإخوان المسلمين، وتسلمه لاحقاً رئاسة مجلس الطلبة في جامعة النجاح الوطنية في تشرين الثاني من العام ١٩٨٢، كما لم يغفل الحديث عن "المسلخ" أو "سجن الفارعة"، فعمله في الصحافة التي أتاحت له مساحة داخل القدس، حين عمل في المكتب الفلسطيني للخدمات الصحافية وكان يمثل وكالة الأنباء الفلسطينية في الوطن.

وما بين اعتقال وآخر، واصل ضميري سرد سيرته عبر حكاياته وحكايات الآخرين من الأسرى، أو من عمل معهم أو التقاهم خلال عمله الصحافي، أو حين اعتقل لعدة أشهر دون تهمة، وخضع للسجن الإداري بتهمة الانتماء لحركة فتح، هو الذي عثر بين أوراقه لاحقاً على مقالة لصديقة زهير الدبعي يتحدث فيها عن ابنه حسين، وكيف فقد النطق بعد "اعتقالي أمامه، وهو يصرخ وجنود الاحتلال يقومون بتعصيب عينيّ وتكبيل يديّ، ويقذفونني في الشرفة".

سريعاً تنقل ضميري للحديث عن مؤتمر مدريد، وحلم الدولة، والأمن والإعلام، وانتفاضة الأقصى، وعن الرئيس الشهيد ياسر عرفات، والأرض، ووالده، والرئيس محمود عباس، ليؤكد "لم أكن أكتب قصائد أو خواطر أو خربشات، إلا بعد أن أخفي مسدسي ونياشين الجنرال، وأتسلل إلى الكلمات كما الفدائي في دوريته عبر النهر، للوصول إلى الضفة الأخرى المحتلة والمغتصبة، بكل ثقوبها التي تشرّ دماً وزنابق وصبّاراً وكثيراً من القمح والسمسم والريحان، واصفاً كتابه بـ"مرويتي"، أو مرافعتي إلى التاريخ، أقدمها بمحض إرادتي، لأنني أؤمن بأن كلاً منا لديه قصة تصلح لأن تكون حكاية تشبه حياتنا الفلسطينية الشائكة والمربكة والقاسية، والمليئة بالأمل أيضاً".

نقطة ضوء

ثأر القرضاوي من طه حسين..!!

حسن خضر

توقفتُ، منذ سنوات أصبحت طويلة، عن متابعة "الجزيرة" القطرية، كما ذكرتُ في حينها، بداعي "القرف". ولا أجد حتى الآن مفردة أفضل منها للتعبير عمّا انتابني من مشاعر كلما أجبرتني حاجة، وضرورة، العلم بالشيء، على مشاهدة الفضائية المذكورة.

وأذكرُ، مما علق في الذاكرة، قبل قرار المقاطعة برنامجاً حول داروِن والداروينية قدّمته "الجزيرة" للتدليل على وجود عيوب علمية ومنهجية كثيرة في صميم نظرية النشوء والارتقاء.

وقد استعانت، في هذا الشأن، بنقاشات الإنجيليين الأميركيين، دون أن تكشف عن ذلك لجمهورها، بطبيعة الحال.

فكل ما كانت تريده يندرج في باب التشكيك في صدقية العالم الحديث، لا توثيق وتمحيص المعرفة.

وبهذا لم تكن قد تقدّمت أكثر من خطوة واحدة على مصطفى محمود، الذي عرض منذ أوائل السبعينيات أشرطة أميركية وأوروبية مصوّرة عن ممالك النحل والنمل، حصل عليها مجاناً من سفارات البلدان المعنية، ويعود أغلبها إلى ثلاثة أو أربعة عقود سبقت، لتتحول على يديه إلى وسيلة إيضاح لعلاقة جديدة وفريدة اكتشفها أخيراً بين العلم والدين.

فعل مصطفى محمود ذلك في ظل "دولة العلم والإيمان" الساداتية. وفعلت "الجزيرة" ذلك في زمن ممارسة قطر لدور الوكيل في الباطن لمشروع تمكين الإخوان المسلمين، وأسلمة العالم العربي.

لدولة "العلم والإيمان" دلالة انتقال مصر من معسكر إلى آخر، وفي تمكين الإخوان دلالة الطموح القطري بالحصول على مكان ومكانة على خارطة العالم، بصرف النظر عن الوسيلة والثمن.

وقبل أيام على صفحات مجلة "الشؤون الخارجية" (فورين أفيرز) الأميركية فعل شادي حامد، المفتون بالإخوان المسلمين، والباحث في معهد بروكينغز، ما سبق وفعله مصطفى محمود و"الجزيرة"، ولكن بلسان إنكليزي فصيح، وبراهين تنتمي إلى الحقل الدلالي نفسه لخلايا النحل، ومستعمرات النمل، بمعنى اعتمادها على "خفة اليد" أكثر من ضرورات البحث ونزاهة الإفتاء في ما اختلف عليه الناس.

ومن تحصيل الحاصل، طبعاً، التذكير باحتفاء "العربي الجديد" بكتاب حامد عن "الاستثناء الإسلامي" قبل سنوات قليلة.

في مقالة بعنوان "ما بعد الليبرالية في الشرق والغرب: الإسلاموية والدولة الليبرالية"، نشرته المجلة في عددها الأخير، يقول حامد إن مثقفين وساسة في الغرب يتحفظون بشكل متزايد على النظام الليبرالي، ويبرهن على ذلك بمثلين أحدهما الفرنسي ميشيل ويلبيك، والثاني صعود الحركات الشعبوية في أوروبا، وانتخاب دونالد ترامب.

يعني مع قليل من اللف والدوران، ثمة محاولة للقول إن دولة الغرب العلمانية أصبحت مُهددة بالإفلاس، والدليل ما يتجلى في تساؤلات جدية وجديدة عن علاقة الدين بالدولة، والوظيفة الاجتماعية للأخلاق والقيم. ولكن، وهنا اكتشاف حامد المُدهش، الشرق الأوسط يسبق الغرب الآن في التساؤل حول دور الدين في الحياة العامة، خاصة بعد الإطاحة بأنظمة مُستبدة في موجة الربيع العربي.

وفي معرض نقد ونقض على هذا الكلام، ثمة ما يستدعي القول إن: عمر التساؤل حول العلاقة بين الدين والدولة، ودوره في الحياة العامة، أقدم من الربيع العربي بكثير، وهو من عمر الدولة القومية الحديثة في العالم العربي.

ويمكن التوقّف حول محطات مهمة في هذا الشأن من نوع سجالات الحقلين الثقافي والسياسي في مصر بعد ثورة ١٩١٩. وثمة ما يبرر العودة ثمانين عاماً إلى الوراء، إلى موقف طه حسين من الدستور، وإلى كتاب "مستقبل الثقافة في مصر".

والأهم من هذا وذاك، أن علاقة الدين بالدولة، في العالم العربي، كانت جزءاً من سياسات واستراتيجيات الحرب الباردة.

لم يكن عبد الناصر شيوعياً، ولكن قضايا العدالة الاجتماعية، والتأميم، وعدم الانحياز، والتقدّم والرجعية، جعلت منه عدواً في نظر الغرب، وجعلت من الإخوان المسلمين في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، حليفاً طبيعياً للسعوديين، وهم أكثر الحلفاء العرب التصاقاً بالأميركيين، وأكثرهم تشككاً وتشكيكاً في أفكار ودعوات من نوع التقدّم والرجعية.

وهذه، على أي حال، ليست نهاية الأحزان. فكما استعان مصطفى محمود بممالك النحل والنمل لبناء نظرية جديدة تماماً عن العلاقة بين العلم والدين، وكما استعانت "الجزيرة" بدعاية وأشرطة الإنجيليين، وليس بينهم علماء يعتد بهم، في معرض النيل من الداروينية، يستعين حامد بشخصيات ثقافية هامشية، وأفكار هؤلاء بالصدفة (بمحض الصدفة، فقط) تنسجم مع أفكار اليمين الأميركي على نحو خاص بشأن تقليص دور الدولة، وحجم تدخلها في الشأن العام، وهذا في معرض الدفاع عن احتمال صعود نموذج كهذا، بعد الهزيمة المدوية للإخوان، في العالم العربي، كبديل إسلامي، إخواني للنظام الدولاني القمعي القائم في الوقت الحاضر.

الأخ حامد لا يكف عن كتابة وتحرير الكتب، ويعتقد أن "القومية العلمانية" كما عرفها العرب في خمسينيات وستينيات القرن الماضي كانت نوعاً من الانحراف، وأن "الإسلام" كان دائماً جزءاً عضوياً في هوية المجتمعات العربية، التي لن تتمكن من الفصل بين الديني والدنيوي.

المسكوت عنه في هذا الكلام أن خمسينيات وستينيات القرن الماضي، سمها القومية العلمانية، أو ما شئت، كانت زمن احتدام الحرب الباردة، وصعود حركات التحرر القومي. والمسكوت عنه، أن الإخوان كانوا على الجانب الخطأ للمتراس.

والأهم من هذا وذاك، كانت خمسينيات وستينيات القرن الماضي، في العالم العربي، أفضل من هذا الزمن بكثير.

خفّة اليد، والإنجيليين، واليمين الأميركي، وكل ممالك النمل والنحل لن تنجح في إقناع أحد بفوز القرضاوي على طه حسين. فما يفعله هؤلاء لا يعدو محاولات لا تكل ولا تمل، ولا يتجلى فيها سوى إصرار الأوّل على الثأر من الثاني.